شهادة تاريخية من مسؤول إماراتي

كتاب يرسم شخصية الشيخ زايد

حالة الإمارات بوصفها دولة اتحادية متفرّدة تشبه سيرة مؤسسها المغفور له –بإذن الله تعالى– الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان –طيّب الله ثراه– من جهة منهجية تفكيره التي بهرت المراقبين حتى اليوم. ولقد عمقت الأيام شعور الانبهار لدى الجيل الذي عايش قيام اتحاد دولة الإمارات العربية المتحدة، وصار يقارنها بما يشاهده على الأرض، وما كان يحدث قبل الاتحاد، أو حتى قبل أن يتولى زايد حكم إمارة أبوظبي عام 1966. كتاب «زايد من مدينة العين إلى رئاسة الاتحاد»، الذي أعيد نشره، يدلل على الصفات القيادية للمؤسس –طيّب الله ثراه– باعتبار أن تأسيس أي شيء يحتاج إلى صفات قائد ليس في قاموسه كلمة «المستحيل».

غلاف النشر الثاني (مركز زايد للتنسيق والمتابعة، عام 2001)

الكتاب: «زايد من مدينة العين إلى رئاسة الاتحاد»
المؤلف: راشد عبدالله النعيمي
الناشرون: دار «كتاب» للنشر والتوزيع (2012)

محمد خلفان الصوافي *

فرغ الكاتب راشد عبدالله النعيمي، وهو وزير خارجية دولة الإمارات العربية المتحدة السابق، من تأليف كتابه «زايد من مدينة العين إلى رئاسة الاتحاد» عام 1972. وقد نشرته مكتبة الإسكندرية في العام نفسه، وأعاد نشره مرة ثانية مركز زايد للتنسيق والمتابعة عام 2001. ونشر أخيراً ضمن الأنشطة المرافقة لندوة جماعة الكتاب في ندوة الثقافة والعلوم بـ«دبي الثقافية»، في إطار الاحتفالات باليوم الوطني لدولة الإمارات. وفي تلك الفترة، التي تعود إلى أربعة عقود مضت، أي البدايات الأولى للسبعينيات من القرن الماضي، كانت الإمارات تحت تأثير ظروف محلية وإقليمية ودولية صعبة عليها، وعلى مؤسسها. والكتاب أقرب إلى أن يكون شهادة تاريخية لمراقب إماراتي، من نسيج رفيع المستوى، سمحت له مناصبه التي تبوأها، وكان أبرزها وزارة الخارجية لأكثر من ربع قرن (1977–2006)، بأن يتأمل عن كثب الأب الراحل، والدولة التي أسسها. وأراد أن ينقل ما يحدث في وطنه، أو ما يمكن تسميته «وثيقة سياسية» لمتابع مدرك لقيم المنطقة وشؤونها. ففي باب «زايد رجل بادية» يرسم الكاتب شخصية الزعيم الإنسانية من خلال سهولة تواصله مع شعبه، فيبدو في أحد المواقف مع رجل من البدو وكأنه أحد أقاربه يتحدث معه من دون ألقاب، وذاك أمر يخالف الكثير من المدارس السياسية –في الأقل المدارس الشرق أوسطية– في التعامل بين الحاكم والمحكوم. وهو أمر –كما يصفه الكاتب– لفت انتباه أحد الرحّالة الأجانب الذين كانوا في مجلس الشيخ.

المتواضع المبتسم

يحمل الكتاب العديد من الدروس في شأن مواجهة التحديات والمصاعب من خلال الحكمة والصبر، وأنه لا يوجد مستحيل في تحقيق الهدف ما دام هناك إيمان به. ويبرز الكاتب في مواضع مختلفة السمات القيادية للشيخ زايد –عليه رحمة الله– مثل التواضع، والمبادرة إلى الابتسام، والتشاور مع المواطنين، والوضوح في التعامل مع القضايا الجوهرية في المجتمع.

ويفهم من تجربة زايد في حكم مدينة العين قبل أن يصبح «أميراً» (المفردة استخدمها الكاتب) لإمارة أبوظبي، أن تلك الفترة عملت على صقل مهاراته القيادية والوحدوية عندما استطاع لعب دور مفصلي في تضييق الشقّة بين القبائل المتخاصمة نتيجة لقسوة الحياة، واكتسب خلال تلك المدة فن الحكم الرشيد، وطوّر شخصيته القيادية، ومن أمثلة ذلك تمكّنه من أن يعيد توزيع

حصص المياه على المواطنين، خصوصاً أن مدينة العين كانت تمر بفترة عصيبة سياسياً: مشكلة البريمي والصراع عليها مع السعودية وعُمان، ثم جهوده الدائبة لتوحيد عالمه الصغير قبل بلورة قناعاته الوحدوية على المستوى الإماراتي، مع أنه كان دوماً يردد أن «أهل الإمارات شعب واحد».

اتحادي قبل وجود الاتحاد

الكتاب، الذي يقع في زهاء 109 صفحات من الحجم المتوسط، كفيل بأن يوضح للمراقبين وأبناء الإمارات فكر الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان البنيوي والوحدوي، وكيف استطاع أن يصنع هذه الدولة التي أصبحت نموذجاً للعالم بعدما كان يُعتقد أنها لن تستمر لمدة طويلة، إما لوجود اختلافات بين الحكام، وإما لوجود دول إقليمية قوية ستضعفها. ومع أن الكتاب نُشر لأول مرة عام 1972، فإن القضايا التي تناولها في ذلك الوقت موجودة كما هي، ولم تدخلها أي تعديلات، وذلك ما أعطى الكتاب طعماً تاريخياً، وروحاً سردية صادقة.

في إطار توصيف مهمة القائد، منذ حكم العين، يشدد الباحث على أن معركة الشيخ زايد الكبرى كانت القضاء على التخلف، وبالرغم من أنه كان هناك الكثير من القضايا التي عدّدها الباحث، فإن تركيزه على «التخلف» له دلالة بصفته المرض الذي أنهك المنطقة. لكنه -طيب الله ثراه- كانت تعوزه «الأسلحة» للقضاء على هذا العدو، إذ لم يتوافر له التمويل اللازم، فوضع خططاً لمستقبل المنطقة، ومضى في دربه يعتمد على ماله الخاص، بالإضافة إلى أموال رجال المال والأصدقاء من الخارج، وفضّل الاعتماد على سواعد أبناء المنطقة في القضاء على «عدوه» التخلف. واستطاع أن يقلص عدداً من المشكلات من خلال تسكين البدو في واحة العين، وحثهم على الزراعة، لذا ضاعف الجهود لإعادة تأهيل الأفلاج، وبعدها صارت العين واحة استقرار للكثيرين. وشرع في تحسين التعليم، فاستقطب مدرسين عرباً من الدول الشقيقة التي لم تكن تعرف موقع إمارة أبوظبي، كما جاء في رسالة للشيخ زايد. ثم توالت المشروعات، وتوسعت لتشمل المنطقة الغربية بعدما تسلم الحكم في إمارة أبوظبي عام 1966، وأصبح أميراً عليها.

يتيح الكتاب للقارئ أن يستنتج أن زايد رسم صورة دولة الإمارات والإنسان فيها انطلاقاً من نموذجه لمدينة العين. ويبرز النعيمي إمكانية استقراء فكر القائد من خلال مشاهدة صيرورة الأوضاع، بدءاً من تطوير حياة المواطن

في العين، مروراً بأبوظبي، إلى أن بدأ يخصص ميزانية قدرت في ذلك الوقت بـ50% من واردات نفط أبوظبي لتطوير إمارات الساحل العماني (يقصد بها الإمارات الأخرى)، بل إنه خصص ميزانية لابتعاث 220 طالباً للدراسة، ومعظمهم من خارج إمارة أبوظبي (حدث ذلك قبل إعلان الاتحاد).

ومع التسليم بأهمية الاطّلاع على محتوى الكتاب، وضرورته، لمعرفة حجم التحديات التي واجهها الشيخ زايد في بناء هذه الدولة، فإن كيفية تعامل القائد مع القضايا التي تطرق إليها الكتاب يمكن أن تثير مقارنة لا مهرب منها، طرفها الآخر ما يعلم الناس عن تعامل بعض الحكام مع شعوبهم، وسيجد القارئ ذلك النفَس السمح بين قائد وشعبه، وربما سيدرك، عندما يقارن، الأسباب التي تجعل بعض القادة بعيدين عن شعوبهم. ومن ثم، فإن أهمية الكتاب تكمن في إحاطة القارئ بالسلاسة والمرونة اللتين تميزت بهما علاقة زايد بمواطنيه ومن يقيمون في بلاده. وكذلك فإن توافر المعلومات الكثيفة فيه مادة مساعدة للمراقبين على استيعاب الأوضاع الإماراتية وما آلت إليه.

«سياسي من الطراز الأول»

لكي يصبح أي زعيم قائداً اتحادياً، لا شك في أن عليه أن يتمتع بفكر قابل للاتساع ليستوعب المتغيرات والأمزجة، وإدراك لما هو مؤقت وما هو باق، وأن يقدم ما يؤيده الناس فيه، وينمي القدرات التي تجعله يطرح أفكاراً خلاقة تستقطب الحماسة لمواقفه والتعاطف معها. لذا كان إعجاب المحللين السياسيين بالشيخ زايد كبيراً. ويورد الكتاب ما قاله كُتّاب وصحافيون عن شخصية زايد، منهم الكاتب والصحافي الهندي المشهور رستم خورشيدي كارانيجا الذي يقول «لقد رأيت أمامي سياسياً من الطراز الأول». ويضيف في إعجاب عميق «إن مواقف زايد السياسية تؤكد أنه تخرج في أرقى الجامعات في العالم». وقد كان هذا الكلام قبل الاتحاد. ويتوقف الباحث عند العديد من المشاهد التي جعلت الصحافيين يقدمون إلى أبوظبي لمقابلة زايد ومعرفة فكره.

يشيد الكتاب كثيراً بالمواقف الإنسانية لزايد مع مواطنيه، وكأنه ينتقد بين سطوره الحكام الذين لا يراعون شعوبهم، ويوضح مواقفه الإنسانية من خلال التدخل حتى في تفاصيل العلاقات الزوجية للمواطنين، محاولاً إصلاح ذات بينهم، بل إن الميل إلى الإحساس بـ«العظمة» لم يكن موجوداً البتة في حياة زايد، برغم ما قدم ونفّذ من خدمات جليلة وعظيمة لحياة مواطنيه. وكانت جميع القبائل تحترمه وتستمع إليه، لما وجدته فيه من عدالة وهيبة سياسية. كما أن الرحالة الغربيين كانوا يسعون إلى مقابلته عندما يمرون في المنطقة، لكثرة ما سمعوا عنه. فهو، كما عرفوا، مَنّ عزز الاستقرار في المنطقة، وأوجد حلولاً لمشكلات المواطنين بعدما عانوا لعقود. واللافت للنظر في الكتاب استقرار الكاتب على نشر ما كتبه قبل أربعة عقود بحذافيره. وتلك أمانة أدبية وقناعة بأن الوارد في صفحاته يؤكّد أن فكر زايد سبق عهده أو زمنه، وبالتالي يصلح لأن يكون مواكباً للتطورات الجارية لحل المشكلات. ومن أمانة المؤلف أيضاً أنه لم يتدخل في النصوص المنقولة عن المراقبين أو المحللين الأجانب، ولم يشرح كثيراً، أو يعمل على التعليق عليها، ربما لأنه يعتقد أن الكلام واضح، ولا يحتاج إلى المزيد من التفاصيل، أو لأنها جمل معبّرة عن قائلها. وبالتالي يترك للقراء المجال لكي يروا هذه الشخصية المتفردة من زاوية كل واحد منهم.

بدوي «جنتلمان»

نقل الباحث هذا المصطلح عن رحالة أجنبي في حديثه عن الصفات القيادية لزايد، وهو من اتصف بالصبر والحكمة والنظرة البعيدة وقوة التحمل. وهو الذي لم يكن يتلكأ في مسيرة تنمية المجتمع والإنسان، أو يتردد لحظة في اتخاذ قراراته، بل إن الآخرين كانوا يحذّرونه، ولكن قناعته وبصيرته كانتا تؤكدان أن التردد قرين الفشل. وبرغم أن سياساته، أحياناً، ربما تبدو للمراقب ارتجالية، فإنه مع مرور الزمن يتضح أنها كانت صائبة وحكيمة، ولا سيما في الظروف السياسية المحيطة بدولة الإمارات وقتذاك.

يجول المؤلف في تلك الأيام التي أكدت أن القائد الذي يقدم مصلحة مواطنيه هو الأبقى. ويقول الكاتب إن القوة والهيبة، اللتين امتلكهما زايد، أدتا إلى إحداث تسويات سياسية بين قادة في منطقة عرفت عنها الصراعات والفرقة، بل إنه بمجرد أن حقق هدفه الوحدوي الأصغر كان ينظر إلى تبني رؤية اتحادية أكبر، فتحول الفكر الوحدوي من العين إلى الإمارات ثم الإقليم. ويروي العديد من الأمثلة التي يؤكد من خلالها ثراء زايد الفكري، وامتلاكه الرؤية السياسية التي تميزه عن غيره من القيادات السياسية. يقول إنه كان يتابع المناهج الدراسية للطلاب بنفسه، ويوصي الوعاظ والأئمة القادمين من الدول العربية بأن يوضحوا للناس أهمية هذا الدين في حل المشكلات الاجتماعية. ويقول إنه كان يرفض من يدعي أن الخلافات بين الحكام ستكون سبباً بالتفرقة، بل كان يؤمن بأن الاختلاف موجود حتى بين الإخوة في البيت. وبنظرة إلى الصورة العامة في الكتاب، نجد أن هناك تركيزاً على أن زايد يتمتع بمعطيات قيادية فذة، وأن المنطقة كانت محظوظة بمجيء مثل هذا القائد في ذلك الوقت من تاريخها. وربما هو -الكاتب- يسعى إلى أن يقول للآخرين: خذوا دروساً في فن القيادة لتأسيس الأوطان. وربما من ناحية ثانية ينفي الاعتقاد السائد أن القيادة تنجح في حالة وجود رخاء، فزايد نجح في وقت كانت أوضاع الاقتصاد فيه عصيبة.

بقي القول إن القيمة الأساسية تكمن في حجم المعلومات التي يحملها الكتاب وصدقيتها، ولا سيما أن النعيمي، بوصفه كان وزيراً للخارجية، كان مطّلعاً على الكثير من تفاصيل سيرة الشيخ زايد -طيب الله ثراه- بحكم قربه وإدراكه لما كان يدور في مفاصل الدولة الاتحادية في بداياتها الأولى، وهو روائي وكاتب عاصر العديد من المواقف في بلاده.

□

* كاتب، ومدير مكتبة الاتحاد في «مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية» بالإنابة